شذرات في فضل العلم وأهله وما ينبغي أن يكون عليه طلبته

تأليف الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد البدر

المقدمة

الحمد لله الذي شرَّف بالعلم العلماء، وجعلهم بحمله وبذله والعمل به ورثة الأنبياء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله من في الأرض والسماء، المتفضل على عباده بما لا يحصى من النعم والآلاء، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أوْلى الناس بالحب والولاء، وأحقهم بجميل الذكر والثناء، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الشرفاء وصحابته خيار الفضلاء وسادات الأولياء، وعلى الذين جاءوا من بعدهم سائرين على نهجهم وكانوا لهم نظيفي القلوب قد

هُدوا إلى الطيِّب من القول والثناء، يقولون: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاًّ للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم.

أما بعد، فإن خير ما تُعمر به الحياة وتُشغل فيه الأوقات، الاشتغال بكتاب الله عز وجل وسنَّة رسوله ﷺ تعلُّماً وتعليماً، وفي ذلك مع العمل الصالح الظفر بخيري الدنيا والآخرة، وكل ما جاء في الكتاب والسّنّة وأقوال أهل العلم من مدح العلم والثناء على أهله فإن المراد به علم الكتاب والسّنّة والمأثور عن الصحابة ومن تبعهم، كما قال ابن القيم في نونيته:

العلم قال الله قال رسوله**	**قال الصحابة أولو العرفان

وهذا هو ميراث النبوة، وهو مبذول لكل من أراده، ومن أخذه أخذ بحظ وافر، وظفر بأعلى مرغوب وأجلِّ مطلوب، وقد رأيت كتابة هذه الكلمات اليسيرة في فضل العلم وأهله وما ينبغي أن يكون عليه طلبته، وأسأل الله عز وجل أن ينفعني وطلاب العلم بها، وأن يمنَّ على الجميع بالفقه في الدين والثبات على الحق؛ إنه جواد كريم.

فضل العلم وأهله في القرآن الكريم

جاء في القرآن الكريم آياتٌ تدلُّ على فضل العلم وأهله وبيان شرفهم وعلو منزلتهم، ومن هذه الآيات:

١. قول الله عز وجل : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

ففي هذه الآية بيان فضل أهل العلم؛ لأن الله ذكر شهادتهم مع شهادته وشهادة ملائكته بأنه الإله الحق الذي لا تكون العبادة إلاّ له، وهي مشتملة على أعظم شاهد وهو الله سبحانه وتعالى، وأعظم مشهودٍ به وهو ألوهيته وأنه المختص بالعبادة، وعطفُ شهادة الملائكة وأولي العلم على شهادته دالٌّ على فضل الملائكة وفضل أهل العلم.

٢. وقوله عز وجل : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

والمعنى: أن الله ميَّز أهل العلم وفضلهم على غيرهم لأنهم بعلمهم بالحق يسيرون إلى الله على بصيرة ويدعون غيرهم

على هدى، فلا يستوي من هو عالمٌ بالحق يستفيد ويفيد ومن هو جاهلٌ به.

٣. وقوله عز وجل : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

ففي هذه الآية الدلالة على فضل العلم لأن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بطلب الزيادة منه، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١/١٤١): ((وقوله عز وجل : ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ واضح الدلالة في فضل العلم؛ لأن الله تعالى لم يأمر نبيه بطلب الازدياد من شيء إلاّ من العلم)).

٤. وقوله عز وجل : ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ففي هذه الآية الكريمة الدلالة على رفعة أهل الإيمان ومن أوتي العلم منهم درجات، ودلالتها على فضل أهل العلم لكونه نصَّ على ذكرهم بعد ذكر المؤمنين وهم منهم، وهو من عطف الخاص على العام.

٥. وقوله عز وجل : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

دلت هذه الآية على أن أهل العلم هم الذين يخشون الله على الحقيقة وإن كانت الخشية تحصل من غيرهم؛ لأن ما آتاهم الله من العلم ومن الفقه في الدين يورث فيهم خشية الله ومراقبته، وذلك دالٌّ على فضلهم.

٦. وقوله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

أولو الأمر هم العلماء والأمراء، فيُسمع للعلماء ويُطاع فيما يبينونه من أمور الدين، ويُسمع للأمراء ويُطاع فيما يأمرون به مما ليس معصية لله عز وجل ، وقد رجّح تفسير ولاة الأمر بما يشمل العلماء والأمراء القرطبي وابن كثير في تفسيريهما.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: ((وقال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: (وأولي الأمر منكم) يعني: أهل الفقه والدين، وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن البصري وأبو العالية، (وأولي الأمر منكم) يعني: العلماء)).

والآية شاملة لأهل العلم في السمع والطاعة لهم فيما يبلغون من دين الله عز وجل .

٧. وقوله عز وجل : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

دلَّت الآية على فضل أهل العلم لأنهم المرجع لغيرهم في بيان الحق والباطل والحلال والحرام.

فضل العلم وأهله في سنّة الرسول ﷺ

جاء في السُّنّة أحاديث كثيرة دالة على فضل العلم الشرعي عموماً وعلى فضل العلم بالكتاب والعلم بالسُّنّة خصوصاً، ومن ذلك:

١. قوله ﷺ: ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)) رواه البخاري (٧١) ومسلم (٢٣٨٩) من حديث معاوية رضي الله عنه.

والحديث يدلُّ على فضل أهل العلم وأن من علامة إرادة الله الخير بالعبد أن يفقهه في دين الله؛ لأنه بذلك يعبد الله على بصيرة ويدعو غيره إلى الله على بصيرة.

٢. وقوله ﷺ: ((ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنّة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله

يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم؛ إلاّ نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده)) رواه مسلم (٦٨٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهو دالٌّ على فضل العلم وفضل مدارسة القرآن، وفيه أن الجزاء من جنس العمل، وأن من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً فإن الله يجازيه بأن ييسر له طريقاً توصله إلى الجنّة.

٣. وقوله ﷺ: ((من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله عز وجل به طريقاً من طرق الجنّة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)) وهو حديث حسن رواه أبو داود (٣٦٤١) و(٣٦٤٢) والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣) وغيرهم عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وقد شرحه الحافظ ابن رجب في جزء.

والحديث مشتمل على خمس جمل كل واحدة منها دالة على فضل أهل العلم.

٤. وقوله ﷺ: ((إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)) رواه مسلم (٤٢٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فيه دلالة على فضل العلم وأهله، وأن توريث العلم سواءً كان عن طريق التعليم أو التأليف شبيه بالصدقات الجارية التي يجري نفعها للعالم بعد موته؛ لقوله ﷺ: ((من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً)) رواه مسلم (٦٨٠٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال أبو إسحاق الألبيري:

وتُفقَدُ إن جَهِلتَ وأنتَ باقٍ	**وتوجدُ إن عَلمتَ وقد فُقدتا**

وقال ابن القيم في كتاب مفتاح دار السعادة (ص: ١٤٩): ((فالعالم بعد وفاته ميت وهو حي بين الناس، والجاهل في

حياته حي وهو ميّت بين الناس، كما قيل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله	**وأجسامهم قبل القبور قبور**
وأرواحهم في وحشة من جسومهم	**وليس لهم حتى النشور نشور**

وقال آخر:

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم	**وعاش قوم وهم في الناس أموات**

وقال آخر:

وما دام ذكر العبد بالفضل باقياً	**فذلك حي وهو في الترب هالك**

ومن تأمّل أحوال أئمة الإسلام كأئمة الحديث والفقه كيف هم تحت التراب وهم في العالمين كأنهم أحياء بينهم لم يفقدوا منهم إلا صورهم، وإلا فذكرهم وحديثهم والثناء عليهم غير

منقطع، وهذه هي الحياة حقاً حتى عُدَّ ذلك حياة ثانية، كما قال المتنبي:

ذكر الفتى عيشه الثاني وحاجته**	**ما فاته وفضول العيش أشكالُ))

والبيت في ديوان المتنبي فيه: (عمره الثاني) بدل (عيشه الثاني)، وفيه (قاته) بالقاف بدل (فاته) بالفاء، وابن القيم رحمه الله المتوفى سنة (٧٥١ هـ) بما خلَّفه من مؤلفات عظيمة نافعة هو ممن بقي ذِكرُه بعد أن مضى على وفاته مئات السنين، ومثله بعض العلماء في القرن الذي عاش فيه، مثل: شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨ هـ)، والمزي (٧٤٢ هـ)، والذهبي (٧٤٨ هـ)، وابن كثير (٧٧٤ هـ)، والشاطبي (٧٩٠ هـ)، وابن رجب الحنبلي (٧٩٥ هـ).

وقال ابن الجوزي رحمه الله في صيد الخاطر (ص: ٢٠): ((فإذا علم الإنسان ـ وإن بالغ في الجد ـ بأن الموت يقطعه عن العمل، عمل في حياته ما يدوم له أجره بعد موته: فإن كان له شيء من الدنيا، وقف وقفاً وغرس غرساً وأجرى نهراً، ويسعى في

تحصيل ذرّيّة تذكر الله بعده، فيكون الأجر له، أو أن يصنّف كتاباً في العلم فإن تصنيف العالم ولده المخلد)).

٥. وقوله ﷺ: ((خيركم من تعلّم القرآن وعلَّمه)) رواه البخاري (٥٠٢٧) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

والحديث يدلُّ على أن من اشتغل بكتاب الله عز وجل تعلُّماً وتعليماً فهو من خيار هذه الأمة.

٦. وقوله ﷺ: ((إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين)) رواه مسلم (٨١٧) عن عمر رضي الله عنه، وفي أوّله قصّة وهي أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعسفان، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: مَن استعملت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى، قال: ومَن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولى؟! قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجل ، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: فذكر الحديث.

ومثل هذه القصة ما ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/٢٠٨) عن أبي العالية الرياحي مولاهم قال: ((كان ابن عباس يرفعني على السرير وقريش أسفل من السرير، فتغامزت بي

قريش، فقال ابن عباس: هكذا العلم: يزيد الشريف شرفاً، ويُجلس المملوك على الأَسِرَّة)).

٧. وقوله ﷺ: ((نضّر الله امرءاً سمع منّا حديثاً فحفظه حتى يبلّغه، فربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، وربّ حامل فقه ليس بفقيه)) رواه أبو داود (٣٦٦٠) وهذا لفظه، والترمذي (٢٦٥٦) وابن ماجه (٢٣٠) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، وهو حديث متواتر جاء عن أكثر من عشرين صحابياً، ذكرت رواياتهم وما اشتمل عليه من الفقه في كتابي (دراسة حديث ((نضّر الله امرءاً سمع مقالتي)) رواية ودراية).

من كلام العلماء في فضل العلم وأهله

١. قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في خطبة كتابه (**الرد على الزنادقة والجهمية**): ((الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل، بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على

الناس، وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عقال الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب، يقولون على الله، وفي كتاب الله، بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهّال الناس بما يشتبه عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلين)).

٢. قال أبو بكر الآجري في مطلع كتابه أخلاق العلماء: ((أما بعد، فإن الله ـ عز وجل وتقدّست أسماؤه ـ اختص من خلقه من أحب، فهداهم للإيمان، ثم اختص من سائر المؤمنين من أحب فتفضل عليهم فعلمهم الكتاب والحكمة، وفقههم في الدين وعلمهم التأويل، وفضلهم على سائر المؤمنين، وذلك في كل زمان وأوان، رفعهم بالعلم وزينهم بالحلم، بهم يُعرف الحلال من الحرام والحق من الباطل والضار من النافع والحسن من القبيح، فضلهم عظيم وخطرهم جزيل، ورثة الأنبياء وقرة عين الأولياء، الحيتان في البحار لهم تستغفر، والملائكة بأجنحتها لهم تخضع، والعلماء في القيامة بعد الأنبياء تشفع،

مجالسهم تفيد الحكمة، وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة، هم أفضل من العبّاد، وأعلى درجة من الزهّاد، حياتهم غنيمة، وموتهم مصيبة، يذكِّرون الغافل، ويعلمون الجاهل)).

٣. وقال أبو هلال العسكري في الحث على طلب العلم (ص: ٤٣): ((فإذا كنت ـ أيها الأخ! ـ ترغب في سموّ القدر ونباهة الذكر وارتفاع المنزلة بين الخلق، وتلتمس عزّاً لا تثلمه الليالي والأيام، ولا تتحيفه الدهور والأعوام، وهيبة بغير سلطان، وغنى بلا مال، ومنعة بغير سلاح، وعلاء من غير عشيرة، وأعواناً بغير أجر، وجنداً بلا ديوان وفرض، فعليك بالعلم، فاطلبه في مظانه تأتك المنافع عفواً، وتلق ما تعتمد منها صفواً، واجتهد في تحصيله ليالي قلائل، ثم تذوَّق حلاوة الكرامة مدّة عمرك، وتمتع بلذّة الشرف فيه بقية أيامك، واستَبْقِ لنفسك الذكر به بعد وفاتك)).

٤. وقال أبو إسحاق الألبيري في وصيته لابنه:

أبا بكر دعوتك لو أجبتا	**إلى ما فيه حظك لو عقلتا**
إلى علم تكونُ به إماما	**مطاعاً إن نهيت وإن أمرتا**

ويجلو ما بعينك من غشاها**	**ويهديك الطريق إذا ضللتا**
وتحمل منه في ناديك تاجاً**	**ويكسوك الجمال إذا عريتا**
ينالك نفعه ما دمت حيّاً**	**ويبقى ذكره لك إن ذهبتا**
هو العَضْبُ المهند ليس ينبو**	**تصيب به مقاتل من أردتا**
وكنز لا تخاف عليه لصاً**	**خفيف الحمل يوجد حيث كنتا**
يزيد بكثرة الإنفاق منه**	**وينقص إن به كفّاً شددتا**
فلو قد ذقت من حلواه طعماً**	**لأكثرت التعلم واجتهدتا**
ولم يشغلك عنه هوى مطاع**	**ودنيا بزخرفها فتنتا**
ولا ألهاك عنه أنيق روض**	**ولا خِدْرٌ بزينتها كلفتا**
فقوت الروح أرواح المعاني**	**وليس بأن طعمت ولا شربتا**
فواظبه وخذ بالجدّ فيه**	**فإن أعطاكه اللّٰه انتفعتا**
وإن أعطيت فيه طول باع**	**وقال الناس: إنك قد علمتا**

فلا تأمن سؤال الله عنه**	| **بتوبيخ: علمت فهل عملتا؟
فرأس العلم تقوى الله حقاً**	| **وليس بأن يقال: لقد رَؤُسْتا

٥. أورد ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم وفضله (ص: ٥٤) أبياتاً لبكر ابن حماد قال فيها:

رأيت العلم صاحبه شريف**	| **وإن ولدته آباء لئام
وليس يزال يرفعه إلى أن**	| **يعظم قدره القوم الكرام
ويتبعونه في كل أمر**	| **كراع الضأن تتبعه السوام
ويحمل قوله في كل أفق**	| **ومن يك عالماً فهو الإمام
فلولا العلم ما سعدت نفوس**	| **ولا عرف الحلال ولا الحرام
فبالعلم النجاة من المخازي**	| **وبالجهل المذلّة والرغام
هو الهادي الدليل إلى المعالي**	| **ومصباح يضيء به الظلام
كذاك عن الرسول أتى، عليه**	| **من الله التحية والسلام

٦. وقال الخطيب البغدادي رحمه الله في فضل أهل الحديث . كما في كتابه شرف أصحاب الحديث (ص: ٨) .: ((وقد جعل

الله تعالى أهله أركان الشريعة، وهدم بهم كل بدعة شنيعةٍ، فهم أمناءُ الله من خليقته، والواسطة بين النبي ﷺ وأمته، والمجتهدون في حفظ ملّته، أنوارهم زاهرةٌ، وفضائلهم سائرةٌ، وآياتهم باهرةٌ، ومذاهبهم ظاهرة، وحجتهم قاهرة، وكلُّ فئة تتحيّز إلى هوى ترجع إليه، أو تستحسن رأياً تعكف عليه، سوى أصحاب الحديث، فإن الكتاب عدّتهم، والسّنّة حجتهم، والرسولُ فئتهم، وإليه نسبتهم، لا يعرجون على الأهواء، ولا يلتفتون إلى الآراء، يُقبل منهم ما رووا عن الرسول، وهم المأمونون عليه والعدول، حفظة الدين وخزنته، وأوعيةُ العلم وحملته، إذا اختلف في حديث، كان إليهم الرجوع، فما حكموا به فهو المقبول المسموع، ومنهم كل عالم فقيه، وإمام رفيع نبيه، وزاهد في قبيلة، ومخصوص بفضيلة، وقارئ متقن، وخطيب محسن، وهم الجمهور العظيم، وسبيلهم السبيل المستقيم، وكلّ مبتدع باعتقادهم يتظاهر، وعلى الإفصاح بغير مذاهبهم لا يتجاسر، من كادهم قصمه اللهُ، ومن عاندهم خذله الله، لا يضرهم من خذلهم ولا يفلح من اعتزلهم، المحتاط لدينه إلى إرشادهم فقير، وبصر الناظر بالسوء إليهم حسير، وإن الله على نصرهم لقدير)).

٧. وقال أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله في كتابه الاعتصام (٢/٢٩٦): ((إن الله سبحانه شرف أهل العلم، ورفع أقدارهم، وعظم مقدارهم، ودلَّ على ذلك الكتاب والسّنّة والإجماع، بل قد اتفق العقلاء على فضيلة العلم وأهله، وأنهم المستحقون شرف المنازل، وهو مما لا ينازع فيه عاقل.

واتفق أهل الشرائع على أن علوم الشريعة أفضل العلوم وأعظمها أجراً عند الله يوم القيامة)) إلى أن قال: ((فأهل العلم أشرف الناس وأعظم منزلة بلا إشكال ولا نزاع، وإنما وقع الثناء في الشريعة على أهل العلم من حيث اتصافهم بالعلم لا من جهة أخرى، ودلّ على ذلك وقوع الثناء عليهم مقيداً بالاتصاف به، فهو إذا العلّة في الثناء، ولولا ذلك الاتصاف، لم يكن لهم مزية على غيرهم.

ومن [أجل] ذلك صار العلماء حكاماً على الخلائق أجمعين قضاءً أو فتيا أو إرشاداً؛ لأنهم اتصفوا بالعلم الشرعي الذي هو حاكم بإطلاق)).

أمورٌ ينبغي أن يكون عليها طلبة العلم

١. **الإخلاص**: الإخلاص تجريد القصد لله عز وجل ، والإخلاص في طلب العلم أن يكون الباعث لطالبه على طلبه وجه الله عز وجل رجاء مثوبته وخوف عقوبته، وأن يرفع الجهل عن نفسه وعن غيره، فيعبد الله على بصيرة ويدعو غيره إلى الله على بصيرة، قال الله عز وجل : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وقال ﷺ: ((إنما الأعمال بالنية وإنما لامرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه)) رواه البخاري (٦٦٨٩) ومسلم (٤٩٢٧) بهذا اللفظ عن عمر رضي الله عنه.

وقال ﷺ: ((إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)) رواه مسلم (٦٥٤٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: ((جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله؟ قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)) رواه البخاري (٧٤٥٨) ومسلم (٤٩٢٠).

والإخلاص أساس النجاح والفلاح، وهو مع الاتباع ركنا العمل الذي يتقبله الله؛ قال الله عز وجل : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، والخالص ما كان لله وحده، والصواب ما كان على سنّة الرسول ﷺ، قال البغوي في تفسيره في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: ((قال الفضيل بن عياض: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أخلصه وأصوبه، والعمل لا يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السّنّة)).

وقال الربيع بن خُثيم: ((كل ما لا يراد به وجهُ الله يضمحل)) الطبقات الكبرى لابن سعد (٦/١٨٦).

وقد قال ﷺ: ((أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل)) رواه البخاري (٣٨٤١) ومسلم (٥٨٨٩).

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/٣٥٤): قال عبد الله بن المبارك: ((رُبَّ عمل صغير تكثره النية، ورُبَّ عمل كثير تصغره النية)).

وقال الذهبي أيضاً (٧/ ١٥٢): ((قد كان السلف يطلبون العلم لله، فنبلوا وصاروا أئمة يقتدى بهم، وطلبه قومٌ منهم أوّلاً لا لله، وحصلوه ثم استفاقوا وحاسبوا أنفسهم، فجرّهم العلمُ إلى الإخلاص في أثناء الطريق، كما قال مجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية ثم رزق الله النية بعدُ، وبعضهم يقول: طلبنا هذا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلاّ لله، فهذا أيضاً حسن، ثم نشروه بنية صالحة.

وقوم طلبوه بنية فاسدة لأجل الدنيا وليثنى عليهم، فلهم ما نووا؛ قال عليه السلام: (من غزا ينوي عقالاً فله ما نوى)، وترى هذا الضرب لم يستضيئوا بنور العلم، ولا لهم وقعٌ في النفوس، ولا لعلمهم كبيرُ نتيجة من العمل، وإنما العالم من يخشى الله تعالى.

وقوم نالوا العلم، وولوا به المناصب، فظلموا وتركوا التقيد بالعلم، وركبوا الكبائر والفواحش، فتبّاً لهم، فما هؤلاء بعلماء!

وبعضهم لم يتق الله في علمه، بل ركب الحيل، وأفتى بالرخص، وروى الشاذ من الأخبار، وبعضهم اجترأ على الله ووضع الأحاديث، فهتكه الله، وذهب علمه، وصار زاده إلى النار)).

٢. **الجدّ والاجتهاد في تحصيل العلم**:

ولابد مع الإخلاص في طلب العلم من الجدّ والاجتهاد وصرف الأوقات في تحصيله والابتعاد عن الكسل والخُمول والإخلاد إلى الراحة؛ فإن الأمر كما قيل: ملء الراحة لا يدرك بالراحة، والمعنى: أن الشيء القليل الذي على قدر كف الإنسان لا يدرك بالإخلاد إلى الكسل وراحة البدن، وروى مسلم (١٣٩٠) عن يحيى بن أبي كثير قال: ((لا يستطاع العلم براحة الجسم)).

قال الشاعر:

الجَدُّ بالجِدِّ والحرمان بالكسل	**| فانصب تُصب عن قريب غاية الأمل**

والمعنى: أن الحظ العظيم ينال بالجدّ والاجتهاد وأن نتيجة الكسل الخسارة والحرمان.

وقال المتنبي:

لولا المشقّة ساد الناس كلهم	**الجود يفقر والإقدام قتّال**

والمعنى: لو كان السؤدد يُنال بدون مشقة وتعب كان الناس كلهم سادة، لكنه لا يحصل إلا بالتعب والمشقة، ولذا لا يحصِّله كل أحد، فليس كلٌّ يصبر على البذل والعطاء مخافة الفقر، وليس كلٌّ يصبر في الجهاد في سبيل الله خشية الموت.

والقدوة والأسوة في الجد في تحصيل العلم أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم ومن كان على نهجهم من سلف هذه الأمة، فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم يلازمون مجالس رسول الله ﷺ لتلقي الحق والهدى منه ﷺ، ثم نشر ذلك بين الناس؛ والذين لا يتمكنون من ملازمة مجالسه ﷺ، يتفق بعضهم مع بعض على التناوب على مجالسه والقيام بأمورهم الخاصة بهم التي تتطلب غياب بعضهم عن بعض مجالسه ﷺ.

ومن حضر منهم مجلساً يخبر من غاب عنه بما تلقاه عن رسول الله ﷺ، ففي صحيح البخاري (٢٤٦٨) ومسلم (٣٦٩٥) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ((إني كنت وجارٌ لي من الأنصار في بني أمية بن زيد ـ وهي من عوالي المدينة ـ وكنا نتناوب النزول على النبي ﷺ، فينزل هو يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته من خبر ذلك اليوم من الأمر وغيره، وإذا نزل فعل مثله)).

وروى مسلم (٥٥٣) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه قال: ((كانت علينا رعاية الإبل، فجاءت نوبتي، فروحتها بعشي، فأدركت رسول الله ﷺ قائماً يحدث الناس...)) الحديث.

ورواه أبو داود (١٦٩) ولفظه ((كنّا مع رسول الله ﷺ خدام أنفسنا نتناوب الرعاية رعاية إبلنا، فكانت عليَّ رعاية الإبل، فروحتها بالعشي، فأدركت رسول الله ﷺ يخطب الناس...)) الحديث.

وكانوا يرتحلون لطلب الحديث الواحد ويقطعون المسافات الشاسعة للوصول إلى من يكون عنده الحديث، ففي مسند الإمام أحمد (١٦٠٤٢) وفي الأدب المفرد للبخاري (٩٧٠) بإسناد

حسن عن جابر بن عبد الله أنه قال: ((بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ، فاشتريت بعيراً، ثم شددت عليه رحلي، فسرتُ إليه شهراً حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أُنيس، فقال للبوّاب: قل له جابر على الباب، فقال: ابنُ عبد الله؟ قلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديثٌ بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يحشر الناس يوم القيامة...)) الحديث.

ولتحديث أبي الدرداء بحديثه المتقدّم: ((من سلك طريقاً يطلب فيه علماً...)) الحديث، قصّة، ففي سنن الترمذي (٢٦٨٢) قال: ((قدم رجلٌ من المدينة على أبي الدرداء وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك يا أخي؟ فقال: حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ، قال: أما جئت لحاجة؟ قال: لا، قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا، قال: ما جئت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سلك طريقاً يطلب فيه علماً...)) الحديث.

وكان كثير من المحدثين إذا رووا عن مشايخ بلادهم ما عندهم من الحديث ارتحلوا إلى الأقطار المختلفة لرواية الحديث عن العلماء في تلك الأقطار، قال الإمام أحمد بن حنبل ـ كما في الرحلة في طلب العلم للخطيب البغدادي (ص: ٩١) ـ: ((لم يكن في زمان ابن المبارك أطلَب للعلم منه، رحل إلى اليمن وإلى مصر وإلى الشام والبصرة والكوفة، وكان من رواة العلم وأهل ذلك، كتب عن الصغار والكبار)).

وقال الشعبي ـ كما في الرحلة أيضاً (ص: ٩٦) ـ: ((لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن فحفظ كلمةً تنفعه فيما يستقبله من عمره رأيت أن سفره لا يضيع)).

ومن أهم مهمات طالب العلم أن يشغل وقته في تحصيل العلم مذاكرة مع الزملاء وأخذاً عن المشايخ، وفي صحيح البخاري (٦٤١٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: ((نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ))، ففي هذا الحديث الدلالة على أن من استعمل صحّته وشغل وقته فيما يعود عليه بالخير ولاسيما في طلب العلم هو الرابح

المستفيد من هاتين النعمتين، وأن من كان بخلاف ذلك فهو الخاسر المغبون.

ومن المهم أيضاً اعتناءُ طالب العلم باقتناء الكتب المفيدة التي تُعنى بالأدلة الشرعية من الكتاب والسّنّة والمأثور عن سلف الأمة، وقراءتها وتدوين الفوائد المهمة في كراريس ولو لم ينقل الفائدة بأكملها، بل يدوّن موضوعها ويشير لموضعها من الكتاب بالجزء والصفحة؛ لأنه لو لم يدوّن الإشارة إليها فإنه يصعب عليه الاهتداء إلى مكانها عند الحاجة إليها، لاسيما إذا كان الكتاب كبيراً واسعاً قد لا يتيسر له قراءته مرّة أخرى مثل فتح الباري لابن حجر ونحوه.

قال الشاعر:

العلم صيد والكتابة قيده	**قيّد صيودك بالحبال الواثقة**
فمن الحماقة أن تصيد غزالة	**وتتركها بين الخلائق طالقة**

ومن أحسن الطرق لاستفادة طالب العلم من الكتب أن يقرأ مقدماتها وأن يعرف مصطلحاتها؛ لأن قراءة مقدمات الكتب في الغالب يكون فيها توضيح للمصطلحات، وفيها بيان للطرق والمناهج التي أرادها هؤلاء العلماء في تأليفهم؛ فإن من لا يقرأ هذه المقدمات ولا يعرف المصطلحات التي اشتملت عليها هذه المقدمات قد يبحث عن الشيء في غير مظنته، وقد يظن أنه يجد بغيته في هذا الكتاب وهي لا توجد فيه لأنها لا تدخل تحت مصطلح صاحبه التي بيَّنها في مقدمة كتابه.

ومثل ذلك بعض المصطلحات التي ظهرت باستقراء بعض العلماء لبعض الكتب، كاستقراء الحافظ ابن حجر كتاب صحيح البخاري وإبراز كثير من مصطلحات الإمام البخاري فيه، وقد أوردت جملة كبيرة منها في كتاب **الفوائد المنتقاة من فتح الباري وكتب أخرى** تحت عنوان: (**منهج البخاري في صحيحه**)، وهوضمن مجموعة كتبي ورسائلي (٨/٢٠١).

٣. **العمل بالعلم**:

وبعد تحصيل العلم والإخلاص فيه لابد من العمل به لأن ثمرة العلم العمل، والعلم بدون عمل يكون حجّة على الإنسان؛ كما

قال النبي ﷺ في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه: ((والقرآن حجّة لك أو عليك)) رواه مسلم (٥٣٤)، وفي صحيح مسلم (٤٩٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: أن أوّل الناس يقضى يوم القيامة عليهم ثلاثة أحدهم: ((ورجلٌ تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن، فأتي به، فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيهما؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار))؛ لأن من يعصي الله على بصيرة أسوأ حالاً ممن يعصيه على جهل.

قال الشاعر:

إذا كنت لا تدري فتلك مصيبة	**وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم**

وقال الخطيب البغدادي في كتاب اقتضاء العلم العمل (ص: ١٤): ((ثم إني موصيك يا طالب العلم بإخلاص النية في طلبه

وإجهاد النفس على العمل بموجبه؛ فإن العلم شجرة، والعمل ثمرة، وليس يُعد عالماً من لم يكن بعلمه عاملاً)).

والعالم الرباني هو الذي يجمع بين العلم والعمل والتعليم، قال ابن الأعرابي كما في فتح الباري (١/١٦٢): ((لا يقال للعالم رباني حتى يكون عالماً معلِّماً عاملاً))، وأزيد: وأن يكون ذلك على فهم السلف الصالح وطريقتهم، وقد روى ابن جرير في تفسيره (١/٧٤) بإسناد صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ((كان الرجل منّا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن))، وأشار إلى صحّته ابن جرير (١/٨٣).

٤. **بذل العلم تعليماً ودعوة وافتاءً**:

ومن منحه الله العلم ووفقه للعمل به فإن عليه أن يعدِّي هذا النفع إلى غيره، فيفتي السائل ويعلِّم الجاهل، ويدعو غيره إلى الحق والهدى، وأن يصبر على ما يناله من أذى في هذا السبيل؛ قال الله عز وجل : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾، فقد أقسم الله في هذه السورة على خسارة كل إنسان وأنه لا ينجو من هذا الخسران إلاّ من آمن عن علم وعمل

الصالحات ودعا غيره إلى الحق وصبر على ما يناله من الأذى، قال محمد بن النضر كما في السير للذهبي (٨/١٥٧): ((أوّل العلم الاستماع، والإنصات، ثم حفظه ثم العمل به، ثم بثّه)).

وقد جاءت السّنّة ببيان عظم الأجر والثواب لمن دعا إلى الله على بصيرة؛ روى مسلم في صحيحه (٦٨٠٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً))، وروى مسلم (٤٨٩٩) عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله)).

وقال النبي ﷺ لعليّ رضي الله عنه يوم خيبر: ((فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حمر النعم)) رواه البخاري (٣٠٠٩) ومسلم (٦٢٢٣) من حديث سهل بن سعد الساعدي.

وقال الخطيب البغدادي في كتابه اقتضاء العلم العمل (ص: ٣٨): أنشدنا محمد بن أبي علي الأصبهاني لبعضهم:

اعمل بعلمك تغنم أيها الرجل**	| **لا ينفع العلم إذا لم يحسن العملُ
والعلم زين وتقوى الله زينته**	| **والمتقون لهم في علمهم شغل
وحجة الله يا ذا العلم بالغة**	| **لا المكر ينفع فيها لا ولا الحيل
تعلم العلم واعمل ما استطعت به**	| **لا يلهينك عنه اللهو والجدل
وعلِّم الناس واقصد نفعهم أبدا**	| **إياك إياك أن يعتادك الملل
وعِظ أخاك برفق عند زلّته**	| **فالعلم يعطف من يعتاده الزلل
وإن تكن بين قوم لا خلاق لهم**	| **فأْمُرْ عليهم بمعروف إذا جهلوا
فإن عصوك فراجعهم بلا ضجر**	| **واصبر وصابر ولا يحزنك ما فعلوا
فكل شاة برجليها معلّقة**	| **عليك نفسك وإن جاروا وإن عدلوا

توقير العلماء والاستفادة من علمهم

من المتعين على طالب العلم أن يحفظ لسانه من الكلام إلا بخير، وأن يوقر العلماء من المتقدمين والمتأخرين ويستفيد من علمهم، وألا يشغل نفسه بالنيل من العلماء والحط من أقدارهم لما في ذلك من قطع الطريق المؤدية إلى الاستفادة من علمهم، وأن يذكرهم بالجميل اللائق بهم، قال الطحاوي في عقيدة أهل السّنّة والجماعة: ((وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخبر والأثر وأهل الفقه والنظر لا يُذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل))، وكلام الطحاوي هذا فيه توقير علماء السلف ممن اشتهر بالحديث أو الفقه، وطالب العلم يُعنى بالحديث والفقه، ويستفيد من مؤلفات العلماء ولا يغلو ولا يجفو في أحد منهم، فيأخذ ما كان عندهم من صواب ولا يتابِع من حصل منه خطأ على خطئه، قال ابن عساكر رحمه الله في تبيين كذب المفتري (ص: ٢٩): ((واعلم ـ يا أخي! وفقنا الله وإياك لمرضاته وجعلنا ممن يخشاهُ ويتقيه حق تقاته ـ أن لحوم العلماء رحمة الله

عليهم مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة)).

وقال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين (٣/٢٩٥): ((معرفة فضل أئمة الإسلام ومقاديرهم وحقوقهم ومراتبهم، وأنَّ فضلهم وعلمهم ونصحهم لله ورسوله لا يوجب قبول كل ما قالوه، وما وقع في فتاويهم من المسائل التي خفي عليهم فيها ما جاء به الرسول فقالوا بمبلغ علمهم . والحق في خلافها . لا يوجب اطِّراح أقوالهم جملة وتنقصهم والوقيعة فيهم، فهذان طرفان جائران عن القصد، وقصدُ السبيل بينهما: فلا نؤثِّم ولا نعصِّم)) إلى أن قال: ((ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة . وهو من الإسلام وأهله بمكان . قد تكون منه الهفوة والزلّة هو فيها معذور، بل ومأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يُتبع فيها، ولا يجوز أن تُهدر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين)).

وقال ابن القيم أيضاً في كتاب الروح (ص: ٣٩٥. ٣٩٦): ((فمن عرض أقوال العلماء على النصوص ووزنها بها وخالف منها ما خالف النص لم يُهدر أقوالهم ولم يهضم جانبهم، بل اقتدى

بهم؛ فإنهم كلهم أمروا بذلك، فمتبعهم حقاً من امتثل ما أوصوا به لا من خالفهم؛ فخلافهم في القول الذي جاء النص بخلافه أسهل من مخالفتهم في القاعدة الكلية التي أمروا ودعوا إليها من تقديم النص على أقوالهم، ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم في كل ما قال، وبين الاستعانة بفهمه والاستضاءة بنور علمه، فالأول يأخذ قوله من غير نظر فيه ولا طلبٍ لدليله من الكتاب والسّنّة، بل يجعل ذلك كالحبل الذي يلقيه في عنقه ويقلده به، ولذلك سمي تقليداً، بخلاف من استعان بفهمه واستضاء بنور علمه في الوصول إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل إلى الدليل الأول، فإذا وصل إليه استغنى بدلالته عن الاستدلال بغيره، فمن استدل بالنجم على القبلة فإنه إذا شاهدها لم يبق لاستدلاله بالنجم معنى، قال الشافعي: ((أجمع الناس على أن من استبانت له سنّة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد)).

وقال شيخنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في كتابه أضواء البيان (٧/٥٥٥): ((اعلم أن موقفنا من الأئمة رحمهم الله من

الأربعة وغيرهم هو موقف سائر المسلمين المنصفين منهم، وهو موالاتهم ومحبتهم وتعظيمهم وإجلالهم والثناء عليهم بما هم عليه من العلم والتقوى، واتباعهم في العمل بالكتاب والسّنّة، وتقديمهما على رأيهم، وتعلُّم أقوالهم والاستعانة بها على الحق، وترك ما خالف الكتاب والسّنّة منها.

وأما المسائل التي لا نص فيها، فالصواب النظر في اجتهادهم فيها، وقد يكون اتباع اجتهادهم أصوب من اجتهادنا لأنفسنا؛ لأنهم أكثر علماً وتقوى منّا، لكن علينا أن ننظر ونحتاط لأنفسنا في أقرب الأقوال إلى رضى الله، وأحوطها وأبعدها من الاشتباه؛ كما قال ﷺ: ((دع ما يريبك إلى ما لا يريبك))، وقال: ((فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه)).

وحقيقة القول الفصل في الأئمة رحمهم الله أنهم من خيار المسلمين، وأنهم ليسوا معصومين من الخطأ، فكل ما أصابوا فيه فلهم فيه أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وما أخطأوا فيه فهم مأجورون على كل حال، لا يلحقهم ذم ولا عيب ولا نقص في ذلك، ولكن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ حاكمان عليهم وعلى أقوالهم كما لا يخفى.

فلا تغل في شيء من الأمر واقتصد ... كلا طرفي قصد الأمور ذميم

فلا تك ممن يذمهم وينتقصهم، ولا ممن يعتقد أقوالهم مغنية عن كتاب الله وسنّة رسوله أو مقدّمة عليهما)).

إلى هنا ينتهي ما أردت تحريره في هذه الرسالة المختصرة جداً المتعلقة بفضل العلم وأهله وما ينبغي أن يكون عليه حملته، وأسأل الله عز وجل أن ينفعني وطلاب العلم بها وأن يرزق الجميع العلم النافع والعمل الصالح إنه سميع مجيب.

وكان الفراغ من تحريرها في اليوم الثالث عشر من شهر رمضان المبارك عام ١٤٢٩ هـ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.